

# نرنقة بئر الجمل



جمعية صيانة مدينة بنى خلاد

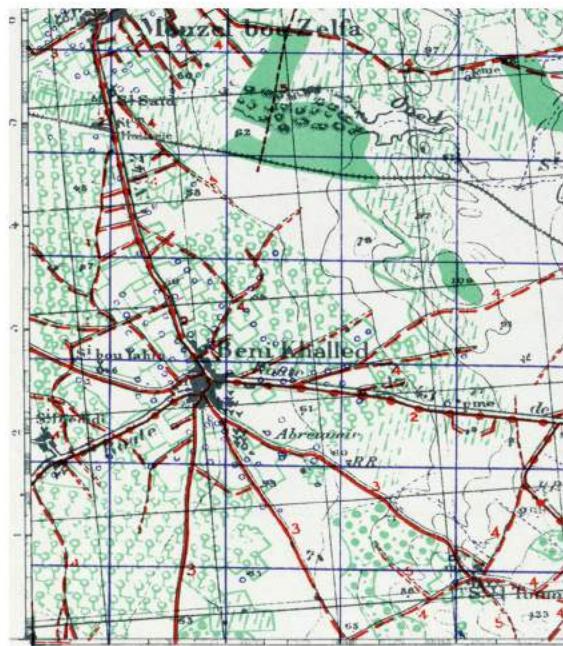
سنة النشر: 2021.

الناشر: جمعية صيانة مدينة بني خلاد.

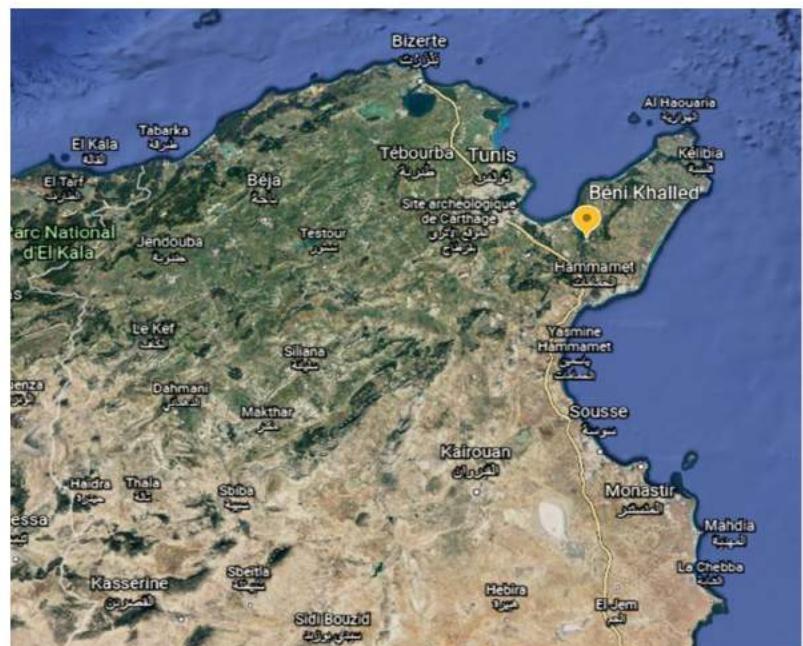
بدعم من المركز الثقافي الألماني في تونس Goethe-Institut Tunesien

لكل مدينة أو بلدة معالمها التي تُخبر عن تاريخها العريق أو الجديد، وتقريرًا لـكُلّ مدينة في تونس يعود تاريخها إلى الفترة الوسيطة أو الحديثة مدینتها العتيقة أو كما نُسمّيها في اللهجة التونسية "المدينة العربي". بني خlad وعلى الرغم من أنها من مدن الوطن القبلي العريقة نسبياً، حيث أن حضورها كبلدة مُتوسطة من حيث عدد السكان يعود على الأقل إلى الفترة الحديثة، فإن زائرها اليوم لا يعثر بسهولة على "المدينة العربي" كما هو حال زائر مدینتي سليمان وقرمبالية المجاورتين.

صمدت المدينة العتيقة في بني خlad وسكانها أمام كل الأزمات التي مرت بها البلاد والمنطقة منذ الفترة الحديثة، أي الحروب الأهلية بين أفراد العائلة الحسينية في النصف الأول من القرن الثامن عشر، ثم المجاعات، والأوبئة والأزمات الاقتصادية التي عاشت على وقعتها البلاد خلال القرن التاسع عشر، الاستعمار الفرنسي واستحواذ المستعمرين الفرنسيين والإيطاليين على الأراضي الفلاحية بالمنطقة، مُروراً بالحرب العالمية الثانية والمعارك التي دارت على أرضها وفي سمائها بين المحور تحت قيادة الألمان والإيطاليين والحلفاء بقيادة الأمريكان والفرنسيين.



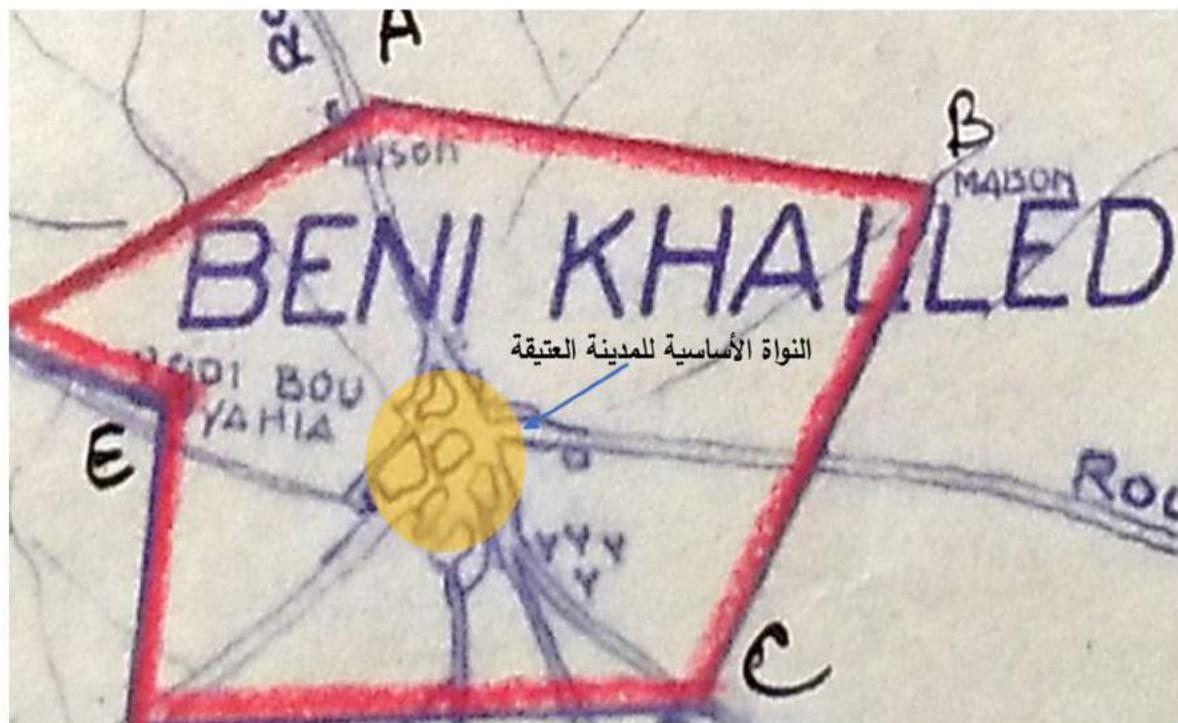
موقع بني خlad على خريطة طبوغرافية تعود لسنة 1943



موقع بني خlad (المصدر: جوجل إيرث)

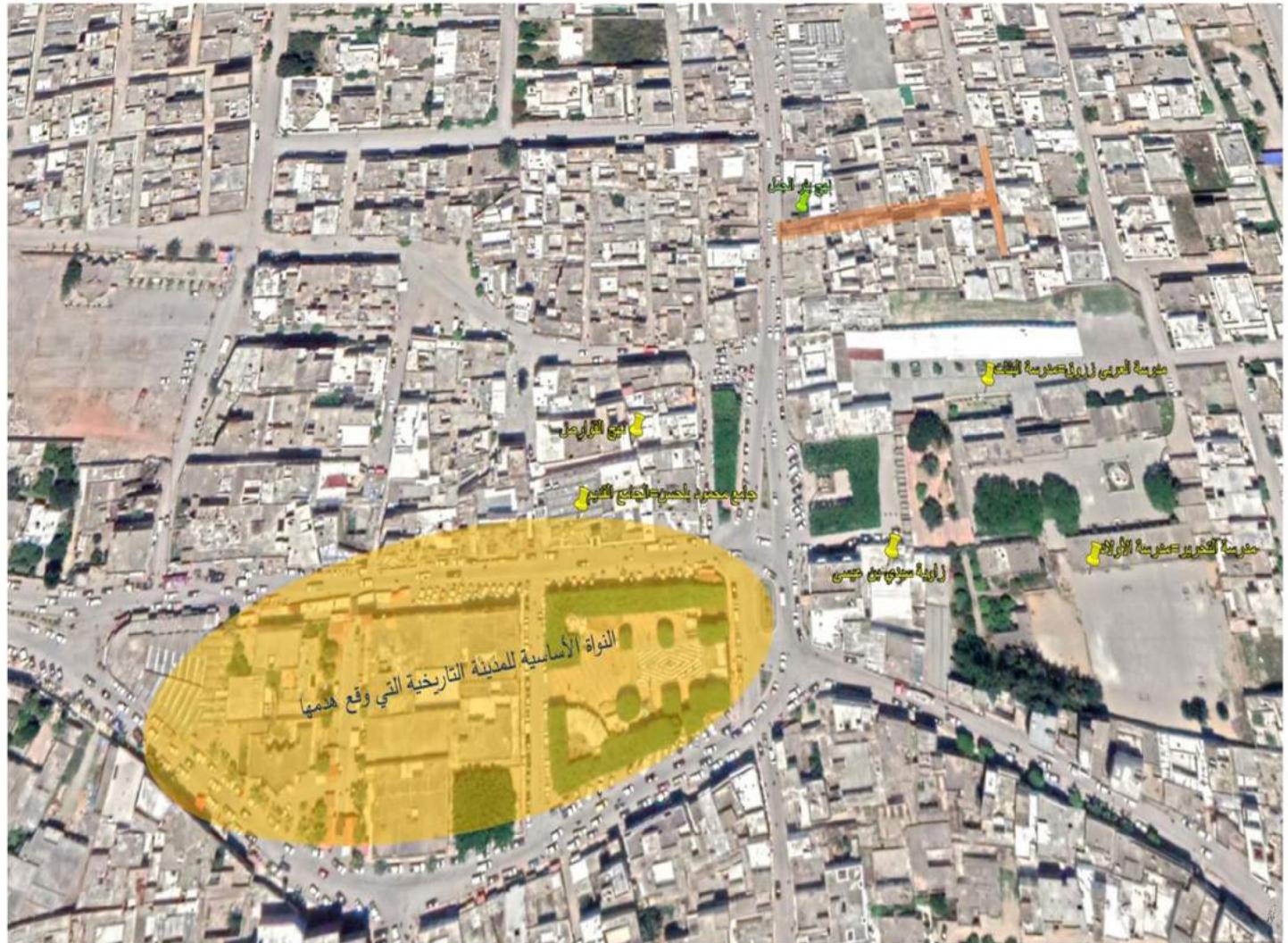
كذلك صمدت المدينة أمام العوامل المناخية المختلفة، حيث أن موقعها المنخفض كان يجعلها دائمةً عرضةً للفيضانات وتجمع سيلان مياه الأمطار التي تنحدر من المناطق المجاورة المرتفعة، أي سيدي التومي وخصوصاً سيدي عليه.

هذا الصمود أمام عوامل الزمن ونكباته، وأمام التضاريس الطبيعية والعوامل المناخية، لم يشفع للمدينة العتيقة، فدولة الاستقلال، كانت تولي وجهها قبلة المستقبل والرغبة في التحديث، لا وجهة التراث والتاريخ، فلئن نجت مدينة تونس العتيقة في السبعينيات من الهدم والتشويه من خلال مشروع تمديد "شارع الحبيب بورقيبة" إلى القصبة، بفضل تدخل المثقفين واليونسكو، فإن مدينة بني خlad العتيقة لم تنجوا، وكان مصيرها هدم غالبية أحياها في بداية السبعينيات. لا نعرف الكثير عن حياثات وخلفيات اتخاذ هذا القرار، لكن المؤكد أن من وراءه لم يكونوا يدركون القيمة التاريخية والرمزية الكبيرة للمنازل والمعلمات التي قرروا هدمها، لم يكونوا يدركون بأنهم يصنعون هوة كبيرة في تاريخ البلدة، وأنهم بفعلتهم هذه لم يخلقوا ساحة كبيرة وبعض المباني الحديثة، بل صنعوا حالة من الفراغ التاريخي والمعماري، وحرموا الأجيال الجديدة من التعرف على التراث المادي لمدينتهم.



النواة الأساسية لمدينة بني خlad العتيقة كما تظهر في مثال التهيئة لسنة 1954

لم يبقى من المدينة العتيقة أو بني خlad التاريجية اليوم إلا الجامع القديم، بعض المنازل التي تحيط بما يعرف اليوم بساحة الثورة والمركب التجاري والسوق القارة، وحيين إثنين هما شارع القوارص الواقع على الجهة اليمنى في الطريق التي يشق المدينة، خلف الجامع القديم، ونهج أو زنقة بئر الجمل الذي ستحدث حوله بأكثر تفصيل فيما يلي.

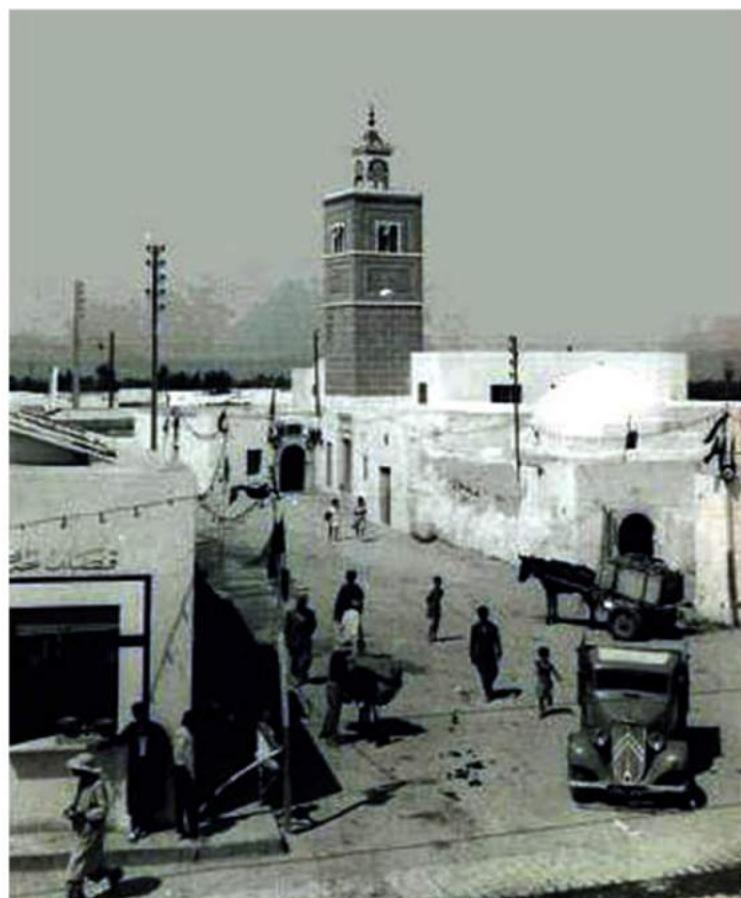


النواة الأساسية للمدينة التاريخية التي وقع هدمها وموقع نهج بئر الجمل

## تقديم لبني خlad

تقع مدينة بني خلاط على بعد حوالي 45 كيلومتر من العاصمة تونس، وهي جغرافياً توجد في وسط جنوب الوطن القبلي، وبالتحديد في سهل قرمبالية. هذا الموقع الإستراتيجي، جعل المدينة من جهة في تواصل دائم مع مدن وقري الوطن القبلي، ومن جهة ثانية في تواصل وثيق مع العاصمة تونس.

يعتبر سهل قرمبالية من أخصب المناطق في الجمهورية التونسية، وهو ما يسمح بتعاطي جميع أنواع الأنشطة الفلاحية، التي استفادت أيضًا من طقس المنطقة الذي يتميز بكثافة الأمطار نسبيًا بالمقارنة مع المناطق التونسية الأخرى.



بني خلاط خلال النصف الأول من القرن العشرين

مدينة بني خlad تاريخ عريق يعود إلى العصور القديمة، حيث يمكن اعتبار موقع "هنشير المدينة" أو "شول CHUL" كبني خlad القديمة أو أقدم تجمع بشري مهم في المنطقة، وهذا الموقع يعود على الأرجح إلى القرن الخامس قبل الميلاد. يقع موقع "المدينة" غرب بني خlad على بعد حوالي ثلات كيلومترات. يذهب بعض الباحثين بالاعتماد على عدد من النقاوش إلى أن المدينة عرفت في الفترة الرومانية وتحديداً في القرن الثالث بعد الميلاد نوعاً من التنظيم الإداري المحلي ومُؤسسات بلدية خاصة بها.

خلال العصر الوسيط يبدو أن المدينة قد عرفت نوعاً من الازدهار الذي لم يتواصل طويلاً نتيجة الغزو الهلالي، الذي أدى إلى دخول العديد من مدن إفريقيا في حالة من الخراب، الذي لم يقع تجاوزها إلا في الفترة الحديثة، التي شهدت إعادة إحياء للعديد من الأراضي الفلاحية التي سيطرت عليها العائلات التركية الحاكمة وبعض الأعيان المحليين والأندلسيين. في نهاية الفترة الحديثة، يبدو أن البلدة قد أخذت في الازدهار من جديد وبدأ عدد سكانها يزداد حتى وصل في منتصف القرن التاسع عشر إلى ما بين ثمانين وألف ساكن.

مع دخول الاستعمار الفرنسي للبلاد في 12 ماي 1881، استحوذ العديد من المستعمرين الفرنسيين والإيطاليين بطرق مختلفة على أراضي فلاحية شاسعة وخصبة في جهة بني خlad والمناطق القرية منها، ما جعل معظم الأهالي يعانون من العوز والفقر، حيث كانت معظم منازل البلدة تفتقر للتيار الكهربائي، المياه الصالحة للشرب، والربط بقنوات الصرف الصحي.

خلال هذه الفترة، أي النصف الأول من القرن العشرين. كانت بني خlad مدينة متعددة الأعراق والجنسيات، بالإضافة إلى السكان المحليين، فقد كان يقطن بمدينة جالية يهودية صغيرة، كما كان يوجد بها عدد من الإسبان أو الغجر الذين كانوا يتعاطون بعض الحرف بالإضافة إلى نشاطهم الرئيسي كباعة متوجلين، أيضاً كان يسكن المدينة عدد من الإيطاليين والفرنسيين.

خلال الحرب العالمية الثانية، وتحديداً في سنة 1943، كانت بني خlad مسرحاً لبعض المعارك، وبعد سيطرت قوات المحور المكونة من الألمان والإيطاليين على تونس، بني خlad وضواحيها، كانت من نقاط تجمع هذه القوات التي استقرت بالمدينة وجهاتها.

ساهمت بني خلاد في الحركة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي، حيث تم إنشاء شعبة دستورية من الأربعينات، وزار العديد من القادة الوطنيين البلدة كالزعيم الحبيب بورقيبة والمنجي سليم. في 23 جانفي 1952 قام عدد من المناضلين الوطنيين بإغتيال اليوتنا فاشي قائد الجدارمية بالجهة، حيث اعتبر هذا الحدث الانطلاقـة الحقيقية للثورة المسلحة في تونس.

في 20 مارس 1956 تحصلت تونس على استقلالها، وفي 12 سبتمبر 1958 تم إنشاء بلدية بني خلاد، ومنذ ذلك الوقت عرفت البلدة العديد من المحطـات التاريخـية الهامة، أي خصوصـاً مرحلة التعاـضـد في السـتينـات وانعـكـاسـاتها على الأنشـطة الفـلاحـية والـاقـتصـاديـة بالـبلـدة، ثـورـةـ الـخـبـزـ سـنةـ 1984ـ، وـثـورـةـ 14ـ جـانـفـيـ 2011ـ وـمـاـ تـلـاهـاـ مـنـ تحـوـلـاتـ سـيـاسـيـةـ كـانـ لـهـ تـأـثـيرـ عـلـىـ بـنـيـ خـلـادـ.



عمليات التمشيط والإعتقال ببني خلاد بعد إغتيال اليوتنا فاشي

## موقع نهج بئر الجمل

يقع "نهج بئر الجمل" أو "نهج عبد القادر عيسى" على الجهة اليسرى من الطريق الرئيسي في اتجاه وسط المدينة. ويحدهُ من الجهة اليسرى زقاق صغير مُتفرع عنه، مُغلق من الجهة اليمنى ويفتح على الشارع المؤدي "الطريق قربة" من الجهة اليسرى. يُقارب طول النهج الأساسي لبئر الجمل حوالي المائة متر، وعرضهُ ما بين مترين ونصف وثلاثة أمتار. يتفرع عن النهج الرئيسي عدد من الأزقة الفرعية الصغيرة التي تكون مغلقة في نهايتها وتضم عدد قليل من المنازل.



مدخل نهج بئر الجمل من جهة الشارع الرئيسي



عدد من الأزقة المتفرعة عن النهج الرئيسي

## تاريخ نهج بئر الجمل

كانت مُعظم المناطق التي تتبع بلدةبني خlad في مطلع القرن الثامن عشر أراضي فلاحية على مُلك أفراد من العائلة الحسينية والأعيان القاطنين بالحاضرة والمناطق المُجاورة. لكن يبدو أنه مع مطلع القرن التاسع عشر قد تزايد الاستقرار بالمنطقة، وبدأت الأراضي الفلاحية القرية أساساً من الجامع تحول إلى مناطق للسكن. في هذا الإطار، نشأ ما يعرف اليوم بزنقة بئر الجمل، والتي كانت حسب شهادات السكان سانية على مُلك أفراد من "عائلة عيسى" الذين يمكن اعتبارهم أول من سكن بالحي.

من خلال بحثنا في وثائق الأرشيف الوطني التونسي، عثرنا في قائمة الهناشير والأراضي والسواني الموجودة ببلدةبني خlad سنة 1862 على غرس يُسمى "غرس عيسى لعلي بن فرج خديم الله"، وهو ما يمكن أن تكون إشارة للسانية المذكورة. هنا تجدر الإشارة إلى أنها نجد في الوثائق الأرشيفية تملك عدد من الأشخاص يحملون لقب "عيسى" لمنازل وبعض الممتلكات الأخرى، لكن الإشارة التي ذكرناها هي الوحيدة التي وجدها فيها إشارة إلى غرس يُعنى سانية، تحمل اسم "عيسى".

دائماً وبالاعتماد على شهادة الأهالي، فإن هذه السانية قد وقع التفريط فيها بالبيع على الشيع على الأقل منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث شيد المالكون الجدد منازل مختلفة من حيث المساحة والرفاهة، وبذلك تكونت النواة الأولى لزنقة بئر الجمل وتطورت شيئاً فشيئاً. الملاحظة الأساسية هنا أن الحي لم يعرف تطويراً كبيراً من حيث التخطيط خلال الفترة الاستعمارية، وبعد الاستقلال، وحتى اليوم فقد بقي مُحافظاً على التخطيط الأولى الذي يتماهى مع تخطيط أحياء المدينة التقليدية، من حيث وجود نهج ضيق مُلتوي بعض الشيء، يشق المنازل الموجودة على اليسار واليمين، مع وجود عدد من الأزقة الفرعية.

وثيقة من الأرشيف الوطني التونسي حيث يظهر "غرس عيسى"

يعرف معظم الأهالي فيبني خlad نهج عبد القادر عيسى بإسم نهج أو زنقة بئر الجمل، لكنهم يختلفون حول أصل هذه التسمية، فالبعض يقول بأنها نسبة إلى جمل وبئر الحمام الذي كان يعرف بحمام دار بن ميلاد، ويقع في مدخل النهج على الجهة اليمنى، وهو من أوائل الحمامات بالبلدة. كان يتم استخراج الماء عن طريق الجمل الذي كان يروح ذهاباً وإياباً بجانب المجرى فيخرج الماء الذي يتم تسخين جزء منه لاستعماله رواد الحمام في عملية الإغتسال.

أما الرواية الثانية، فتذهب إلى أن أصل التسمية، هي أن جملًا قد سقط في بئر أحد منازل الحي، حيث يبدو أن هذا الحدث قد اشتهر في البلدة ومن هناك أطلقت على النهج تسمية "زنقة بئر الجمل".

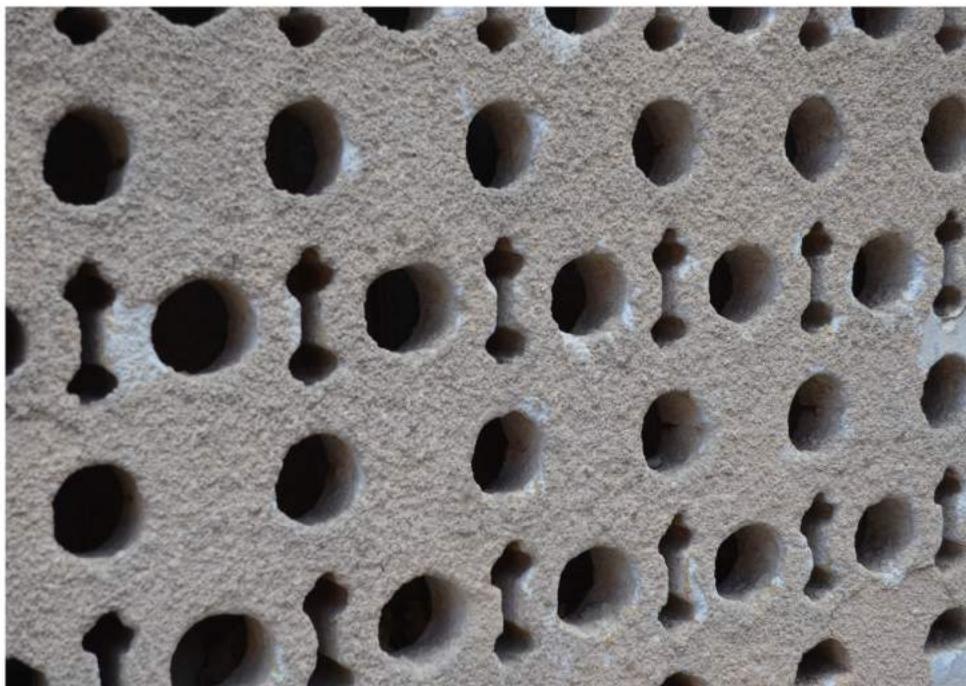
اليوم لا نجد البئر ولا الجمل، حيث اندر الحمام ومعه الآبار التي كانت موجودة تقريباً في كل منزل من أجل توفير حاجيات سكانه من الماء الصالح للشراب، و حاجيات الطبخ والاغتسال، لكن التسمية بقيت شاهدة على أحد أعرق الأنهج في المدينة، ومذكورة بتاريخه الفريد والمتمدد الروايات.



لافتة نهج عبد القادر عيسى (بئر الجمل)

يتفاوت حجم منازل الحي وطريقة تخطيطة من منزل إلى آخر، لكن سواء من خلال المعاينة الميدانية أو صور الأقمار الصناعية، يمكن أن نلاحظ أن عدداً هاماً منها ما زال يحافظ على الشكل التقليدي، أي وجود مدخل (سقيفة)، تفتح على وسط الدار الذي يكون غير مُسقف، ويُستعمل كمنفذ لدخول الشمس والهواء للغرف التي تحيط به، كما كان يوجد به في العادة بئر، وتُستعمل أرضيته أيضاً لتجفيف المواد الغذائية التي يتم إعدادها خلال فصل الصيف من أجل مقاومة البرد وقلة الموارد الغذائية الأساسية خلال فصل الشتاء.

أيضاً كانت بعض المنازل ذات المساحة الكبيرة، مكاناً لاجتماع أطفال النهج للعب، وربما كذلك لعب وسط الدار في هذه المنازل دور "قاعة الحفلات" التقليدية لأعراس سكان الحي، فقد كان السُّكَان مُتضامنون في أعراسهم وأتراهم، وكان الجميع يهُبون للمساعدة عند الحاجة، فالجميع يتقاتلون الفرح في المسرات، والحزن في الأوقات الصعبة.



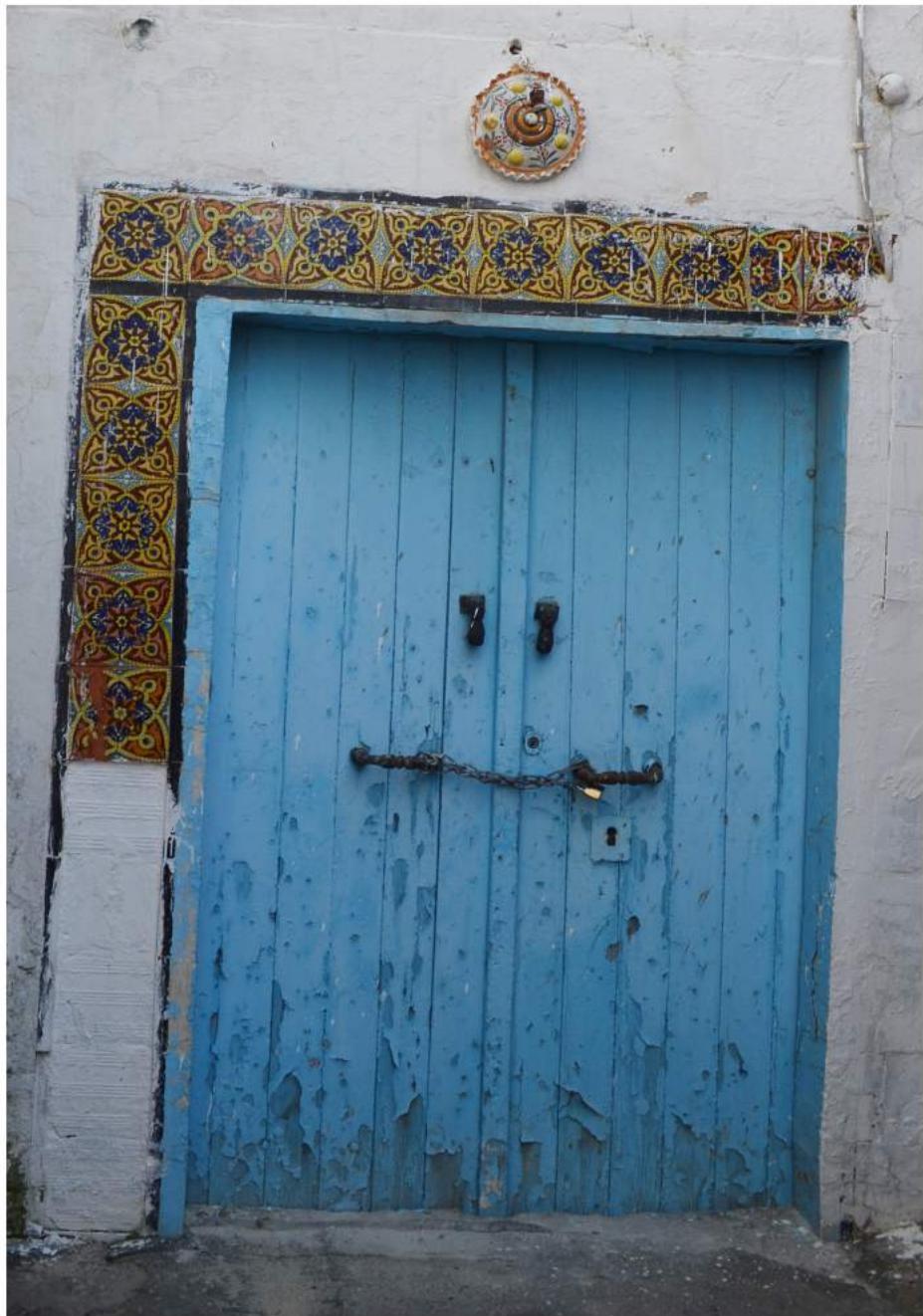
تفصيل لشباك أحد منازل الحي

يتكون النهج من حوالي ثلاثين منزلًاً، معظمها من المنازل التقليدية ذات الواجهات البسيطة المُتكونة من باب وعدد من النوافذ. للأسف العديد من المنازل تم تحويل وجهاتها، وفقدت طابعها التقليدي، لكن تلك التي حافظت على وجهتها الأصلية، وعلى الرغم من وضعها المتردية، فإنها تكشف عن عراقة هذه المنازل وعلو ذوق سكانها.

نجد أن بعض الواجهات قد زينت مداخلها بالرخام الذي نحت عليه عدد من الأشكال الهندسية والنباتية. في حين زُين مدخل آخر بربعات خزفية ذات أشكال وألوان مختلفة. هذه الواجهات تعكس عراقة هذه المنازل المتأثرة بالعمارة الأندلسية والإيطالية التي أثرت في العمارة التونسية.



واجهة أحد منازل الحي



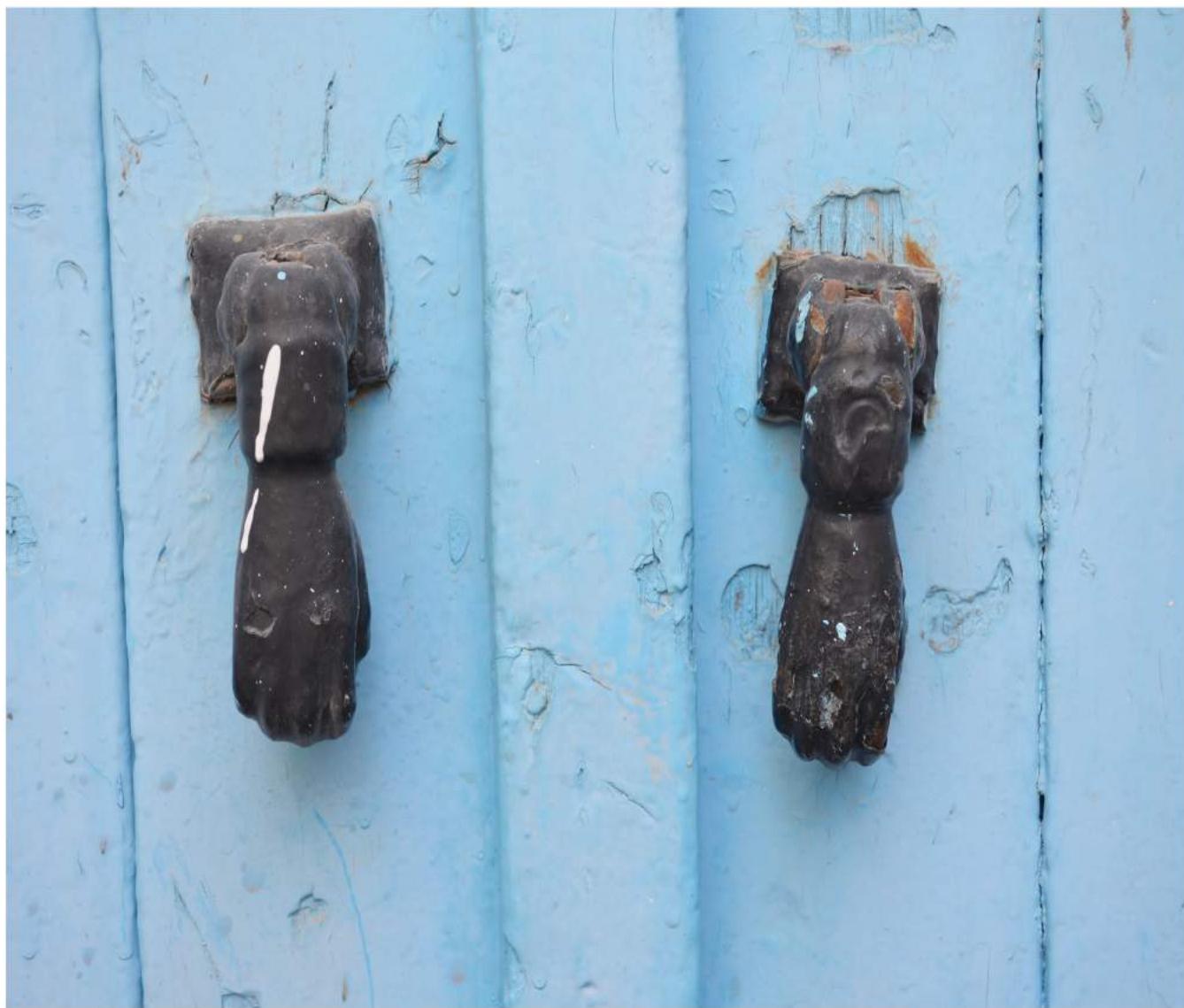
واجهة أحد منازل الحي

أما الأبواب فهي في عدد منها كذلك على الطريقة التقليدية، أي أن الباب الرئيسي ينقسم إلى أربعة أجزاء: بابان، يكون واحداً منها دائم الاستعمال لخروج ودخول السكان والضيوف، في حين يكون الثاني في العادة مغلقاً ويفتح فقط في أوقات الضرورة، لإدخال الدواب التي كانت تستعمل في الفلاحة والتنقل. نجد على الباب في قسميه المتحرك والثابت ما يُعرف "بالدقاقة" والتي تكون على شكل يد خماسية من أجل حماية سكان المنزل من عين السوء. في الجهة العلوية من الباب، تجد نافذتين تستعملان في التهوية وإدخال الضوء للمدخل أو "السقيفة".

على الرغم من الوضعية الصعبة التي عليها الحي اليوم، فنلاحظ تواصل حضور زراعة بعض نباتات زينة أمام بعض المنازل، وهو ما يؤكد المعلومات التي أمننا بها بعض كبار السن عن عناية السكان الأوائل بنظافة الحي ومحاولة المحافظة على رونقه الخاص من خلال توادر دهن الجدران بالكذاك الأبيض وتحزيمها باللون الأزرق، مع المحافظة على نظافة الأرضية الترابية على الرغم من كل المصاعب، المتعلقة بتصرف المياه المستعملة.



نباتات زينة أمام أحد منازل الحي



«دقدقة» أحد منازل الحي

نهج أو زنقة بئر الجمل، ليس فقط المباني والجدران، بل هو أيضاً وأساساً سكانه البشوشون والمضايافون، الذين قاوم معظمهم الزمن وإغراءات العيش في الأحياء الخرسانية الجديدة والفسحة، حيث أن بعض العائلات توارثت سكنها الحي منذ ما يجاوز القرن. البعض الآخر خرج وعاد، آخرون سكناها بصفة حديثة نسبياً، لكنهم جميعاً أضحوأ بناء الحي، يتشاركون حُب الحي والرغبة في صيانته والمحافظة عليه.

العائلات التي سكنت الحي:

- دار بريمة
- دار الهدواج
- دار الخياري (دار صالحة عمارة)
- دار محمود الوحيشي
- دار محمد عيسى (دار خالد بن شعبان)
- دار الشبار (دار فاطمة أم هاجر الشакري "بوشباط")
- دار حسين الشبار المختار
- دار خليل عيسى
- دار صالحة الشبار
- دار حبيب بن شعبان
- دار الكلبوسي
- دار بن عشيبة=دار غميض
- دار المليزون (محمد المليزون)
- دار علي بن قمرة
- دار بفون (الحاج علي حميده بن ميلاد
- دار حمادي الصغير (دار كركر+دار حمودة+دار حمدة)
- دار العيشوني الملوي
- دار الحاج محمد بوزرية
- دار علي الحمام (أصبحت روضة)
- دار رحومة عيسى
- دار الحاج الهادي عيسى
- دار الحاج محمد عيسى
- دار حميده الهرقام
- دار علي عيسى
- دار جبر الكيلاني- دار عبد القادر عيسى
- دار محمد سالم
- دار المولدي سعدة (دار وشو)
- دار عمر الكلبوسي
- دار شاشية
- دار بن ميلاد
- دار حسن بلقاسم بن شعبان

كان معظم سكان الحي يتعاطون الأنشطة الفلاحية في سوانحهم الواقعة في أحواز البلدة، حيث كانوا يتوجهون في الصباح الباكر إلى أعمالهم التي تختلف من فصل إلى آخر، من حراثة وبذر أو غراسة خلال فصل الخريف، ثم جني للأشجار المثمرة خلال فصل الشتاء، فتقليم الأشجار وجمع الزهر خلال فصل الربيع، ثم السقي وال收获 خلال فصل الصيف.

في المساء، كان يعود رب المنزل وربما أبنائه إلى المنزل، يتحلقون على ضوء شمعة، قنديل أو «بابور» قاز للعشاء ولتجاذب أطراف الحديث. تميز الحي كمعظم بني خlad في المستوى الاجتماعي بأنه يقوم على السلطة الأبوية والمحافظة. كما كان ما يعرف "بكبار الحومة" هم من يسهرون على حُسن النظام في الحي ويقومون بحل بعض المشاكل والمشاجرات التي يمكن أن تقع بين السكان والأزواج.

لباس السكان كان بسيطًا، ويعكس الحالة المادية المتوسطة أو المتواضعة لسكان الحي كحالة معظم سكان بني خlad، فقد كانت النساء في الأيام العاديّة تلبسن الفوطة والبلوزة، وعند الخروج من المنزل، يتلحفون بالسفاري الأبيض، في حين كان الرجال يرتدون البلوزة ذات اللون الرمادي القاتم أو البرنس والقشابية، أما في المناسبات والاحتفالات فكانت النساء كما الرجال والأطفال يتزينون بأفضل ما لديهم من ملابس، سواء الفوطة والبلوزة المخصصة فقط للاحتفالات بالنسبة للنساء أو الجبة والشاشة بالنسبة للرجال.



تفصيل لأحد سكان بني خlad سنة 1952 يرتدي رفقة ابنه قشابية

شهد نهج وسكان بئر الجمل معظم الأحداث التاريخية التي عرفتها بني خlad خلال القرن العشرين، فقد عايشوا أهواز الحرب العالمية الثانية، وكانوا يجلؤون كل سكان بني خlad إلى السوانى المحيطة بالبلدة للاختباء في الخنادق من الغارات التي كان يشنها الحلفاء على قوات المحور المتمركزة بالبلدة. عقب الحرب عاش السكان ظروف صعبة جدًا، نتيجة نقص الغذاء وتعطل الأنشطة الفلاحية خلال الحرب، وتعطل نشاط الأسواق الأسبوعية، أي أساساً سوق منزل بوزلفة الذي كان يتزود منهُ السكان. نتيجة كل ذلك كان الأهالي يعيشون على المساعدات أو ما يعرف "بنظام البونوات" الذي لم يكن يوفر إلا الحد الأدنى من الحاجيات الأساسية للعيش.

كذلك شهد النهج أحداث 23 جانفي 1952 فبعد إطلاق النار على اليوتنا جون فاشي، وخلال الملاحقات تم القبض في مدخل النهج على المُناضل عبد القادر عيسى. أما بعد الاستقلال فقد استقبل النهج وسكانه الزعيم الحبيب بورقيبة الذي تناول الغذاء خلال زيارته لبني خlad في منزل الحاج تك (محمد) شاشية.



عمليات التمشيط ببني خlad بتاريخ 26 جانفي 1952



المراكز الثقافي الأطامي في تونس  
Goethe-Institut Tunesien

بدعم من



جمعية صيانة بنى خلاد